الأبحاث الأثريّة في جزيـرة سُوقَطْرَى

د. فيتالي ناوومكين
د. الكسندر سيدوف

منذ عام 1983 تعمل في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية «البعثة العلمية السوفيتية ـ اليمنية المشتركة»، وذلك على أساس البروتوكول الموقع بين أكاديمية العلوم السوفيتية والمركز اليمني للأبحاث. وهذه أول بعثة علمية متكاملة في تاريخ العلاقات السوفيتية ـ العربية، فهي تضم مؤرخين واثنوغرافيين واركيولوجيين وانتروبولوجيين ولغويين وأخصائيين آخرين. ويمضي العلماء السوفييت كل سنة ثلاثة أشهر في اليمن، هي موسم العمل الميداني. أما المهمة الأساسية للبعثة فهي الدراسة المتكاملة للتطور التاريخي للمجتمع البشري منذ غابر الزمن وحتى اليوم في أقدم المناطق الزراعية بالجزيرة العربية ـ في حضرموت والمناطق المرتبطة تاريخياً بها، وخاصة المهرة، الواقعة في الجزء الشرقي من اليمن الديمقراطية، وجزيرة سُوقَطرَى، التي تبعد ٥٠٠ كم عن الشاطىء اليمني في المحيط الهندي.

إن جزيرة سوقطرى، التي يتكلم سكانها ـ بلغة أصيلة غير مدروسة بعد ـ اللغة السُوقطرية، معروفة في التاريخ منذ أقدم العهود. وهي تقع عند ملتقى الطرق البحرية، فكانت محط أنظار القراصنة والغزاة، وخلال قرون عديدة عاشت الجزيرة في عزلة نسبية، مما ساعد في الحفاظ على العديد من السمات المميزة لحياتها الاقتصادية والاجتماعية والروحية، التي يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام، ويسمح باستعادة العديد من ملامح الثقافة العربية التي صارت في المناطق الأخرى نسياً منسياً منذ أمد بعيد.

ويترأس المجموعة السوفيتية، التي تعمل في الجزيرة، البروفسور فيتالي ناوومكين، وكان بين أعضائها الدكتور الكسندر سيدوف. أما الأبحاث الأثرية، التي تتحدث عنها هذه المقالة، فلا تمثل إلاّ محوراً من محاور الدراسة العلمية، التي تغطي أيضاً ميداني اللغة والفولكلور السوقطريين، وحياة السقاطرة الاقتصادية وبناهم الاجتماعية وعلاقاتهم القبلية والعشائرية والعائلية، وعاداتهم وتقاليدهم الأصيلة.

إن أول الأبحاث الأثرية في سوقطرى كان قد تمّ في عام 1897، وذلك على يدي العالم البريطاني تيودور بينت، الذي أشار إلى وجود مواقع أثرية في

الجزيرة. ثم أتى بعده بيتر شيني، عضو بعثة أكسفورد لسنة 1956. وجاء دانكن داو، مدير دائرة الآثار في عدن، ليسهم عام 1967 بقسط أكبر في دراسة المواقع الأثرية بالجزيرة.

وقد توصل شيني إلى الاستنتاج التالي: «إن نتائج دراسات سوقطرى لم تفسح المجال للأمل في العثور على بقايا العصر اليوناني الكلاسيكي. صحيح أنه ليس من المستبعد أن تكشف الأبحاث اللاحقة عن مثل هذه البقايا، ولكن من الجلي أن هذا لن يتم على الأحجار الجيرية الجرداء في الشمال، التي يتجمع عندها التراب، ومن المحتمل كل الاحتمال أن التجار الأوائل، الذين استقى منهم المعلومات صاحب «دليل البحر الأرتري»، قد أمضوا فترة قصيرة في الجزيرة: وبوسعنا الافتراض أنه لم يكونوا يؤمون الجزيرة إلّا نادراً، وذلك شيمة التجار المعاصرين القادمين من الجنوب العربي والهند، فلم يكونوا يتوقفون هنا إلّا لعدة أيام، فكانوا يسحبون مراكبهم حتى الشاطىء، ويحصلون على المؤن والمياه اللازمة، ثم يتابعون طريقهم إلى الهند أو إلى البحر الأحمر، بحيث يصعب أن يتركوا شيئاً وراءهم»[1].

ونحن نعرف الآن أن بعثة أوكسفورد قد مرت مرور الكرام بأهم المواقع الأثرية، وإن كان شيني من الرواد الأوائل في الدراسة الأثرية للجزيرة.

وقد عنيت البعثة عناية خاصة بدراسة بقايا الكنائس والتحصينات الدفاعية والمساكن. فقد فحصت قلعة في وادي فيراغي. وقد جاء في وصف شيني لهذه القلعة: «إن القلعة، التي تقع في أضيق أجزاء الوادي الذي يمتد حتى الشاطىء، قد لفتت انتباه بينت (فقد أشار إليها، ولكنه لم يعط وصفاً مفصلاً لها، ولم ينشر صورها). وتقع القلعة في القسم الغربي من الوادي، بالقرب من الحوض. . . ويبدو أن الحوض قد وسع وعمق بصورة اصطناعية. وهو يشبه خندقاً مليئاً بالماء، وإن كان لا يحد إلّا السور الأمامي من القلعة. وقد بنيت القلعة من الغرانيت الأحمر، على قاعدة صخرية. . . أما السور الأمامي الرئيسي فقد بني من الصخور الكبيرة، في حين بنيت الأسوار الأخرى من الأحجار المنحوتة، وهو أمر، لا يتوافق مع أسلوب بناء البيوت المحلية ذات الزوايا الدقيقة. وقد أتى الخراب على القسم الخلفي من القلعة، ناهيك عن استعمال أحجاره لبناء مخابىء الغنم ولرسم الحدود بين الحقول.

والقلعة مثلثة الشكل، يحد سورها الأمامي برجان، أما السور نفسه فليس إلّا حاجزاً، لا يعلو إلّا قليلاً على مستوى الأرض داخل القلعة، وفي الساحة المركزية بئر، وبمحاذاة أحد الأسوار أنقاض لعدة مساكن. «وليس ثمة معلومات، تدل على زمن بناء القلعة فلم يعثر على آنية فخارية، ولا مواد أخرى، في القلعة وضواحيها. وقد استنتج أسلافنا من الباحثين أن البرتغاليين هم الذين بنوا هذه القلعة. ولكنني لم أجد شيئاً، يؤكد صحة هذا الاستنتاج، ولذا أرجح أن العرب المهريين هم الذين شيدوها، وذلك بهدف بسط إشرافهم على البدو السقاطرة. ويبدو أن ذلك كان في القرن السادس عشر، عندما استعادوا سيطرتهم بعد انسحاب البرتغاليين من الجزيرة»[2].

وقد عثر الدكتور نيل أور، أثناء تجولاته في الجبال لأخذ عينات الدم من البدو، على جملة بيوت، يسميها السكان المحليون «قديمة» أو «إفرنجية». ويذكر شيني أن أور أشار، فيما أشار إليه، إلى ما يلي:

«1 ـ بيت حجري، يطل على قشن، يضم غرفاً كبيرة. والغرفة الرئيسية بينها مستديرة، قطرها 5,4 ـ 6 أمتار. والجدران مبنية من الأحجار التي يجمعها الأسمنت. وهناك أربعة أعمدة، مصنوعة من الأحجار الملصوقة بالأسمنت، تدعم عوارض، هي

عبارة عن جذوع شجرة العلب. وتمتد هذه الجذوع من عمود إلى آخر، ومن العمود إلى الجدار. ويتربع فوقها سقف مبني من الحجارة والطين، سماكته 60 - 90 سم.

2 - في مخادم، جنوب غرب جبال حجهر. بضعة بيوت «إفرنجية»، ذات جدران حجرية مملصة، وساحات مرصوفة بالأحجار.

3 - على صفيحة جيرية بالقرب من زريحة بيت «إفرنجي» قديم. أرضيته من الجير الطبيعي، وجدرانه متينة، مزدوجة الرصف. وهنا ساحة كبيرة، طولها تسعة أمتار. وفي البيت ثلاث غرف، إحداها شبه معتمة، مغطاة بالحشائش، ووراء البيت ساحتان، مختلفتا المستوى، لم تترك يد الخراب منهما إلّا قليلاً، فالأحجار تغطي إحداهما كاملة.

4 - بضعة بيوت قديمة في عدهين، في أسفل جبل شلاله. ويندرج القسم الأعظم منها في الأسوار، التي تحد بين الحقول... ركامات حجرية في الحقل وبالقرب من البيوت. والبيوت متفاوتة في مقاييسها، ويبلغ طول أحدها 9 م وعرضه 3,6 م.

إن بيوت البدو الحديثة ذات عوارض خشبية، أما البيوت القديمة فترتكز سقوفها إلى صفائح حجرية كبيرة (يصل طول بعضها إلى 1,8 م)، يستند أحد طرفيها إلى العمود المركزي ويستند طرفها الآخر إلى الجدران، التي يميل بعضها باتجاه الوسط، وتوضع الأحجار أحدها على الآخر، لتشكل ما يشبه القبة. وبمحاذاة الجدران مضاجع، تعلو قليلاً على الأرض. وغالباً ما يستر المدخل حائط حجري صغير. وتلتصق بالبيت زريبة غنم، تستعمل الآن للبقر.

5 - في المرج المشرف على ملصه، في أسفل جبل شلالة. مدرج من الحقول والأسوار، التي غالباً ما تشكل حواجز حامية. بيتان لم يبق من الغرفة المستطيلة بأحدهما (10,8 × 3,6م) إلّاشريط من الأحجار، يقسمها إلى نصفين. وبالقرب منها مبنى على شكل زاوية قائمة.

وعلى بعد عشرة أمتار من البيت الأول هناك بيت مماثل (18 × 3,6 م)، مقسم إلى غرف مربعة.

وعلى مسافة خمسين متراً أنقاض ثلاثة مبان مستطيلة، ذات جدران حجرية مملصة مزدوجة. وفي أحد المباني موقد حسن الرصف، كبير للغاية... وله جدران، مزودة بمدخنة، تطل على الخارج. أما الجدران فلا تعلو على 1,5 م، وهي حسنة الرصف، ولا تزال بحالة جيدة. وأبعاد المبنيين هي 9 × 3,6 م، أما أبعاد المبنى الثالث فهي 27 × 2,7 م»[3].

وقد كان بوسع داو أن يستند في دراسته للجزيرة إلى معطيات شيني. وأهم ما تمكن من إنجازه هو وصفه لكل ما رآه وتسجيله، وإن ظل بعيداً عن الوقوف على كافة المواقع.

وقد أولى داو اهتماماً خاصاً بفحص منطقة «السوق». وهو يذكر أن خير مراسي الجزيرة يبدو وكأنها تؤكد وجود محطات قديمة لمعيشة الناس في الجزيرة، وتحديداً في قلنسية (غبة قلنسية)، وفي «السوق» (غبة حديبو وبندر وليشه). وتقوم أفضلية السوق في أن مراسيها تتوضع على طرفي رأس حولف، مما يؤمن له الحماية سواء من الرياح الشرقية أو الغربية، أما السوق نفسها فيقع في الوسط، الأمر الذي يسهل المواصلات الداخلية.

«ما عدا الانقاض الباقية في دسينيفيرو، حيث يبدو أنها كانت موقعاً قديماً ذا أغراض دينية، تعود كافة المواقع الأخرى إلى القرون 15 - 17، وفي أواسط القرن السادس عشر كانت السوق لا تزال عاصمة، بالرغم من أن حديبو (تمريدو) كانت قد تحولت إلى مدينة، سرعان ما حلت محل السوق نتيجة لتجدد

نشاط المهريين، الذي يساعد عليه قيام حامية برتغالية، لم تعمر إلّا قليلاً». وفي عام 1615 أهملت الكنيسة البرتغالية في السوق، في حين شهدت حديبو قيام مسجد. ويرى داو ان هذا المسجد كان مبنى مسطح السقف، أما القبة، فقد بنيت فيها بعد، وذلك في الوقت الذي شيد فيه المسجد بالقبة بقلنسية[4].

وقد أكد تنظيف أرضية الكنيسة في السوق على إمكانية وجود مبنى، يعود إلى فترة أقدم، إلى مطلع القرن السادس عشر، أما الملحق الشمالي وأنقاض السور الشرقي فيدلان على الأبعاد الأصلية لهذا المبنى.

وبفضل اكتشاف القلعة، التي عثر عليها بين الصخور الجبلية، والتي تطل على المدينة، تبينت أيضاً بعض مميزات بناء التحصينات الدفاعية في السوق[5].

وبعد تفحصنا لمنطقة السوق تقدمنا بفرضية، تذهب إلى أنه كان بوسع المراكب في قديم الزمن أن تدخل هور وادي السوق، الذي عثر في طرفه على بعض الأنقاض، وقد ثبتت جزئياً صحة هذه التخمينات عام 1985، حيث اكتشف موقع «حجره» (سنعود إلى ذلك أدناه).

وفي أراضي السوق وبالقرب من الهور وجد داو قطعاً فخارية، شبيهة بالفخار الذي عثر عليه على شاطىء أفريقيا الشرقية، والذي يعود إلى ما بين القرنين العاشر والسابع عشر.

إن أقدم هذه القطع هي كسرة من طرف إناء، له مسكة، وميناؤه أخضر اللون ملفح، يتطابق مع فخار العصر الساساني المتأخر أو العصر الإسلامي الباكر. وربما جيء به من بلدان الخليج العربي، كما عثر على فخار مماثل على شاطىء أفريقيا الشرقية، وذلك مع قطع تعود إلى القرن العاشر، واكتشف أيضاً في صراف، وقد قام ن. تشيتيك بمقارنة هذا الإناء مع المواد المأخوذة من أفريقيا الشرقية[6].

وتعود إحدى القطع (وعليها مخربشات) إلى القرون 11 - 13.

وثمة إناء، بدون ميناء، يرى داو أنه حديث، استورد من الخليج العربي.

وتعود قطع الأواني الصينية الحجرية إلى القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر، أما قطعة الفخار البنية ذات الميناء (وقد تكون جزءاً من إناء للزنجبيل) فتعود إلى القرنين 17 - 18.

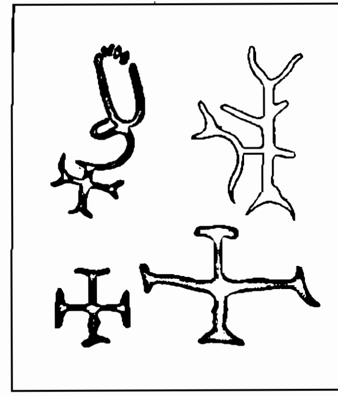
أما القطعة الوحيدة من الفخار الصيني الأصلي (إذا استثنينا كسرات الإناء الحجري) فتشكل القاعدة الثقيلة لكأس أخضر اللون شاحبة، يعود إلى القرنين 15 - 16. ومن الجدير بالذكر أنه لم يتم العثور في سوقطرى على أواني صينية سماوية - بيضاء، وهي الأواني الواسعة الانتشار على شاطىء أفريقيا الشرقية، وفي جنوب الجزيرة العربية.

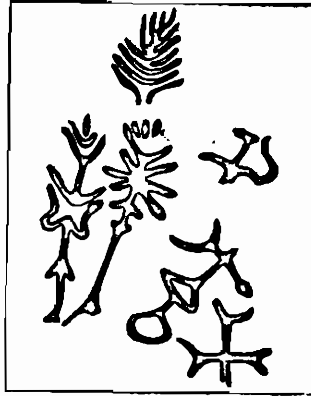
وعثر في السوق على عدد كبير من الأواني الإسلاميه الأحادية اللون، تعود إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر. وكثيراً ما يتم العثور على فخار مماثل على شواطىء أفريقيا الشرقية وفي جنوب الجزيرة العربية[7].

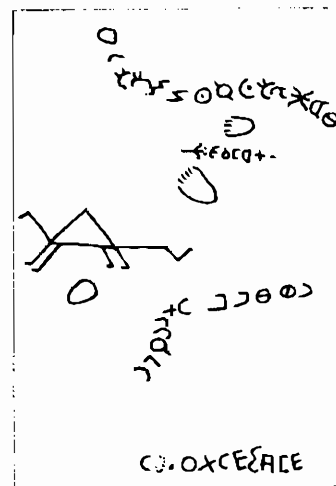
وقد قام داو بفحص دقيق لمنطقة أريوش، التي يذكر بينت وشيني أنهما وجدا مخربشات فيها. ويقول داو ان أريوش عبارة عن ثلاث ساحات جيرية مقعرة بيضوية الشكل، طولها الإجمالي حوالي (90 متراً) تقع على مستوى واحد، وتتوضع باتجاه شرق - غرب. ولم يعثر على مخربشات إلا في الساحة الوسطى، التي تظهر على طرفها الشمالي أنقاض سور. «وقد نحتت على سطح الحجر الكثير من المخربشات والرسومات، بما فيها تصاوير قدم

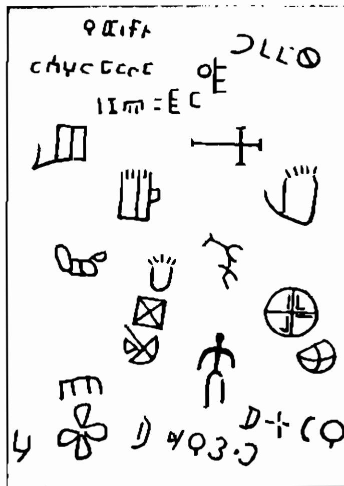
وأشكال هندسية بحتة وحيوانات وبشر. وثمة مخربشات، تشبه حروف الكتابة اليمنية القديمة مع بعض الميزات الخاصة بالكتابة الأثيوبية، كما وتشبه حروف الأبجدية، التي عثر عليها ووصفها برتراند توماس في الشمال من الظفار. ومن الصعب تصوير المخربشات، لأنها منحوتة على عمق صغير، ويكاد لا يكون لها ظل. وبعد المطر الغزير، الذي هطل في نيسان، تغطى سطح الموقع كله بطبقة سميكة من الطين، كان من الضروري نزعها. وكان قسم من الموقع مغطى بطبقة مائية، سمكها 15 سم، كانت تشرب منها الإبل والماعز، مما يدل، أغلب الظن، على أن الرعاة كانوا يستخدمونها أي الماعز في ذلك الزمن القديم، الذي نحتت فيه تلك المخربشات»[8].

وعلى مسافة 180 م جنوب غرب منطقة المخربشات تقع أنقاض مبانٍ، تفحصها داو أيضاً، ولم يتمكن من اكتشاف شيء، من شأنه أن يساعده على تاريخها ولو بصورة تقريبية، وقد أشار هذا العالم إلى أن طريقة الرصف هنا أتقن منها في البيوت الحديثة، وإلى أن هذه المباني مستطيلة الشكل. ونحن نرجح أن المباني









نقوش
من أريوش

المذكورة. بالذات هي التي ذهب بينت، عام 1897، إلى أنها كنائس.

وعندما زرنا هذه المنطقة كانت الأنقاض أقل منها عام 1967. ولذا فإن الوصف الذي تركه لنا داو يتمتع بأهمية خاصة، ونحن سنورده أدناه بشيء من الاختصار.

إن الامتداد الإجمالي لسلسلة المباني يصل إلى حوالي 270 م. وقد نوّه الأثريون البريطانيون بأن معظم المباني مصفوفة طولاً باتجاه شمال - جنوب.

وثمة موقع آخر، يبعد حوالي 1,2كم إلى الجنوب من أريوش. ويضم هذا الموقع خمسة مبان مهدمة، لا تزال وظيفتها غير معروفة بعد، وإن كان داو يعتقد أنها قد تكون مساكن، ذلك أنها في منطقة، مأهولة من قبل (بالرغم من أنه لم يعثر على شيء، يدعم هذه الفرضية). ويبلغ امتداد الموقع 180 م، أما امتداده الآخر باتجاه شرق - غرب فيصل إلى 63 م. وجدير بالذكر أن اثنين من المباني الخمسة يحتويان على آثار لخلايا حجرية، ربما كانت مخابىء لصغار الماعز. وهكذا يمكن الظن أن هذه المجموعة من المباني قد تكون قرية مهجورة.

وفي الوادي، ولا سيما جنوباً باتجاه الجبل، يصادف الكثير من مجموعات أخرى من أنقاض مبانٍ غير كبيرة. وقد سجلت البعثة البريطانية بعضاً من هذه المجموعات. وأغلبها أكواخ دائرية خربة، يتعذر التأريخ لها. وفي قمة تل رأس كرمة عثر على قواعد دائرية من الأحجار، قطرها 4,5 م، في وسطها حجر كبير، يقوم عليه العمود الذي يسند السقف. وبين هذه القمة والشاطىء هناك أيضاً أنقاض، يرى السكان المحليون أنها من آثار الناس القدامى[9].

وهكذا فإن دراسة الأراضي الواقعة بالقرب من أريوش لم تساعد ولو في التأريخ التقريبي للمخربشات، ولا للخرب الواقعة بالقرب منها. أما المخربشات والرسومات نفسها فقد درسناها مفصلاً. ويمكن القول، وبكل اطمئنان، انها نحتت في الأرضية الحجرية. ولكن محاولات التحقق من هوية الرموز، التي تذكر بالكتابة النقشية اليمنية القديمة، لم تسفر عن شيء، وربما كان أصحابها قد اكتفوا بتقليد هذه الكتابة، فقد كانوا قد رأوها من قبل، ولكنهم لم يلموا بها، إذ انهم من أبناء اللغة السوقطرية، لا اليمنية القديمة، أما المخربشات فيرجح أنها تتعلق بطقوس سحرية، ويتبدى هذا واضحاً بالنسبة لتصاوير القدم، التي تصادف مثيلاتها في مناطق مختلفة من العالم. كما أن تصاوير التيس أو الخروف، الذي كان أهل جنوب الجزيرة العربية يقدسونه، فتتسم بطابع ديني جلي وبين التصاوير، التي وجدناها نحن، يجدر التنويه برسم الجمل والرجل الذي يسعى لاصطياده (فإن تصاوير الجمل كهدف للصيد قد عثر عليها الأثريون الأمريكيون في السعودية)[10].

وثمة مخربشات، تقع بالقرب من«السوق». وبينها تصاوير الصليب، التي اكتشفها الأثريون البريطانيون.

وفي ضوء الدراسة الأركيولوجية للجزيرة قام داو بتعميم المعلومات الخاصة بكافة المباني، التي تعود إلى القرن السابع عشر، وقد أبرز الأنماط التالية من المباني.

1 - دائرية، مبنية من صخور وأحجار كبيرة.

2 - كهوف، ذات حيطان وقائية من الخارج، تحمي المدخل، ويبدو أن هذه الطريقة لا تزال قائمة حتى أيامنا.

3 - مدرجات ذات أسوار صخرية، وأسوار صخرية على الخطوط الدفاعية في الطرق الجبلية الضيقة.

4 ـ مجمعات من المنشآت الملحقة الفردية، غير المصممة وفقاً لمخطط ثابت. وتلتصق الجدران، المبنية من الأحجار، بالدعائم العمودية للأبواب. وتتميز هذه المنشآت باستعمال الأعمدة لدعم عوارض السقف. والأرضية هنا مرصوفة. وعادة ما تكون جدران زرائب الماشية ملاصقة لجدران البيت.

5 ـ مجمعات من المنشآت الملحقة، جدرانها مبنية من الأحجار، ولكن بدون إسمنت. وقد بنيت هذه المجموعات وفقاً لمخطط مسبق، وذلك على شكل مستطيل، محدد الزوايا بدقة. وتتوزع الأعمدة مجموعات متناظرة، تضم أربعة منها أو ستة، أما دعائم الأبواب فمصنوعة من الأحجار. والأرضية مرصوفة بأحجار مسطحة.

6 ـ أسوار فاصلة مبنية من الصخور، التي جمعت بجهد كبير من أراض شاسعة. وكانت هذه الأسوار تفصل بين الأملاك الفردية الخاصة.

7 ـ جدران المنشآت والأسوار التي تحيط بأماكن السكن، التي يبدو أنها غير مرتبطة بالمنشآت الملحقة المذكورة وبمنظومة الأسوار الفاصلة. وربما كانت هذه ملكاً للرعاة، الذين يربون الأغنام في الجبال، أما على الشاطىء فكانت ملكاً للصيادين والغواصين الباحثين عن اللؤلؤ، ويمكن العثور عليها بالقرب من الشاطىء، في مواقع مثل سيهارقار وبين مباني «السوق».

8 ـ جدران من أحجار غير منحوتة، تربط بينها النورة، المصنوعة من الصدف والجير المحروق. وبالقرب من هذه الجدران تم العثور على أوان ذات ميناء، أحادية اللون، خضراء أو زرقاء.

9 ـ أرضية مطلية بالنورة، وتصادف أكثر ما تصادف في بيوت «السوق».

10 ـ جدران من أحجار غير منحوتة، مسوّاة نوعاً ما، ومملطة بالنورة من الخارج ويصادف هذا النمط من الجدران في مساجد حديبو وقلنسية[11].

ويمكن الموافقة على استنتاجات داو هذه، ولكن مما لا شك فيه أنه بعد إنجاز عمل بعثتنا سيكون بالإمكان إدخال بعض التعديلات عليها.

وفي الحقيقة فإن بعثتنا هي التي بدأت الدراسة العلمية المنظمة للمواقع الأثرية بجزيرة سوقطرى، وإن كانت قد استفادت من نتائج أبحاث شيني وداو. وفي المرحلة الأولى قررنا صب الاهتمام الأساسي على الجزء الشرقي من الجزيرة، حيث ان مشاهداتنا الأولية تدل على أنه هنا بالذات تقع أنقاض المنشآت الأكثر قدماً، والتي لم تكن محط نظر العلماء البريطانيين.

وهنا يكفي التنويه بمنشآت صندوقية (من طراز دولمن)، اكتشفناها، وللمرة الأولى، أثناء زيارتنا الأولى للجزيرة عام 1974، واعتبرناها عليّات فوق المقابر، الأمر الذي ثبتت صحته أثناء التنقيبات التي جرت في عام 1985 وعام 1987.

وفي منطقة كاليسن الخلابة، التي تقع في الوادي الذي يحمل الاسم نفسه، والتي تشتهر بالنبع الجميل الذي يتدفق من بين الصخور، وجدنا في عام 1983 بقايا كنيسة صغيرة. والكنيسة مبنية من حجارة منحوتة وغير منحوتة، وتتوافق كل التوفيق مع الجهات الأربع. ومدخل الكنيسة من الغرب، والهيكل في شرقها. والمبنى بيضوي الشكل، بعده الطولي 7 م، والعرضي 5 م.

واكتشفت أيضاً منشآت عديدة، مبنية من الأحجار الكبيرة (قرب قلنسية، مثلاً)، لم يأت داو على ذكرها، ولكنها تشبه المنشآت التي عثر عليها. وفي المنطقة الشرقية وقفنا على سلاسل من التخوم الحجرية، تمتد إلى عدة كيلومترات ويبدو أنها كانت في

قديم الزمن حدوداً، تفصل بين مزارع اللبان والمر.

وأخيراً ينبغي التنويه باللقى الهامة، التي اكتشفت أثناء عملنا (بالاشتراك مع الانتروبولوجي فلاديمير شينكارنكو) في المنطقة الشرقية عام 1984. وبينها يبرز نمط من أنماط المدافن السوقطرية ـ مدافن جماعية في الكهوف الطبيعية.

وبعد طلوعنا عقبة شلهن لم نتجه شرقاً، في الطريق المؤدية إلى رأس مومي، وإنما قصدنا الجنوب، فسرعان ما وجدنا أنفسنا في قرية «شعب» (وتصادف هذه التسمية في مناطق عديدة من الجزيرة). وقد استقبلنا هنا سعيد علفان، وهو أحد أبناء قبيلة «بنو مشرة»، وراح يعرفنا على الكهوف ـ المدافن «للناس القدامى»، التي سبق أن سمعنا بها ونحن في حديبو.

وعلى مسافة حوالي 2كم جنوب شرق «شعب»، فوق الوادي، على منحدر جبل بغبغه، وعلى ارتفاع زهاء 100 م فوق أسفل الجبل، طالعنا كهف طبيعي، على شكل قبة ارتفاعها حوالي ثلاثة أمتار وقطرها حوالي أربعة أمتار. أما مدخله فبيضوي، يطل على الجنوب الغربي. وفي حينه كان هذا المدخل قد سدّ بحائط من الحجارة المطينة. ولكن منذ مدة قريبة فتح الصبيان، الذين كانوا يلعبون هنا، ثغرة في ذلك الحائط. والآن تتراكم في الكهف أعضاء الهياكل العظمية لتسعة من البشر وعظام غنمة.

وعلى بعد 30م، باتجاه الجنوب الشرقي، عثرنا، عند سفح الجبل، على عدة مدافن أخرى. وكانت مداخل ثلاثة منها تطل على الجهة الشمالية الشرقية من الجبل، وكانت حيطانها الواقية قد خرّبت أيضاً. ومن دواعي الأسف أننا لم نتمكن من العثور على مدافن سليمة. وقد أخذنا معنا عينات من بقايا العظام لفحصها ودراستها.

وفي موسكو سلمنا هذه العينات إلى مختبر معهد الجيولوجيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، حيث قام الدكتور ليونيد سوليرجيتسكي بالتحليل الكولاجيني لها. وقد بين التحليل أنها تعود إلى 1300 سنة خلت. ولذا يمكن ردّ المدافن المذكورة إلى حوالي عام 685 م.

كما درسنا جملة من المقابر الجماعية في عقبة حيبق، بالقرب من قرية قاضب، وذلك في الجزء الوسطي من الشاطىء الشمالي للجزيرة، وكذلك في جنوب قلنسية، على الشاطىء الغربي للجزيرة، عند «رأس البدو».

ولكن مسألة تحديد تواريخ المدافن، وبرغم نتائج التأريخ الكولاجيني، لا تزال غير محلولة بصورة نهائية بعد. فتقول المعلومات، التي حصلنا عليها من السكان المحليين، أنه حتى أيامنا لم يكن من النادر دفن الموتى في الكهوف الطبيعية وسدّ مداخلها بالحجارة. وكان ذلك يتم عادة في فترات الجفاف والأوبئة، حيث كان من الصعب على الناس حفر ما يكفي من المدافن. وفي الوقت نفسه، تحكي المصادر القروسطية أن السقاطرة كانوا يدفنون موتاهم في الكهوف بالذات.

ويبدو أن أقدم المواقع الأثرية (المعروفة) في الجزيرة يقع بالقرب من قرية راكف الحالية. وقد عثر هنا على بقايا مشغل (؟) لصنع الأدوات الصينية، وهذا هو المكان الوحيد في المسطح الجبلي بشرق الجزيرة، الذي يبرز فيه على السطح صوّان، يشكل قشرة على الصفائح الجيرية المائلة. وتغطي الأدوات الصينية بقعة، أبعادها حوالي 400 × 400 م. وقد صارت بحوزتنا مجموعة كبيرة نسبياً، تحتوي على قلوب الأحجار ورقاقات، بما فيها منمقات وألواح وأدوات (مكاشط وانصال وغيرها). ومن المرجح أن هذه المجموعة تنتمي إلى «العصر التاريخي»، ولعلها تزودنا بمعلومات عن الحياة الاقتصادية لقدامى سكان الجزيرة.

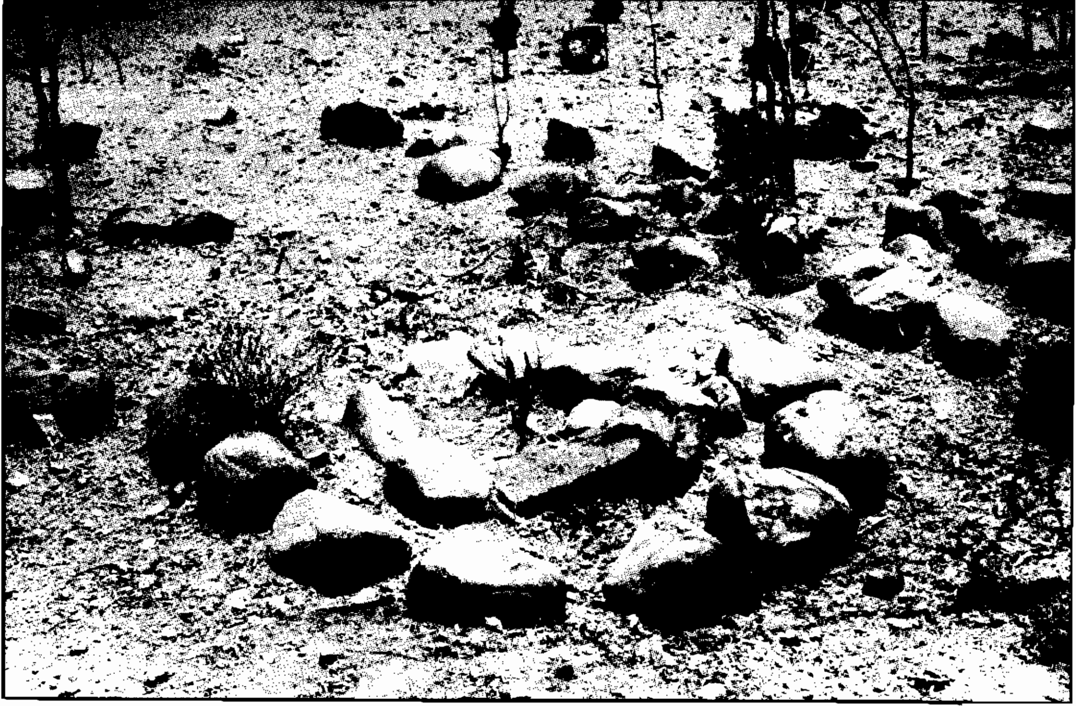
وهنا أيضاً، في قرية راكف، مجموعة من المدافن، تنفرد بعلياتها الصندوقية الشكل، التي لا مثيل لها في باقي مناطق سوقطرى. وتتألف المجموعة من عشرة مدافن، لم تسلم منها إلاّ علية واحدة. وهذه العلية مستطيلة، تتوضع باتجاه شمال ـ جنوب، وابعادها: 1,92 × 2,64 × 0,7 - 10. ويتكون الجانبان الشرقي والغربي من 3 - 4 صفوف من الصفائح الحجرية المنحوتة قليلاً، أما الفراغات بينها فتسدها حجارات صغيرة. والجانب الجنوبي مبني من حجرتين عموديتين، مستقرتين في الأرض، بينهما فتحة مستطيلة 0,54 × 0,8 م. وسقف العلية صفيحة حجرية كبيرة، طولها 2,64 م وعرضها 1,92 م، وسماكتها 0,17 - 0,22 م. وهذه الصفيحة تتوضع أفقياً تماماً. برغم تفاوت سماكتها. ولكن باستثناء هذه العلية فإن باقي العليات مخربة كلها. ومع ذلك يمكن الاستنتاج من بقاياها أنها قريبة الشكل من العلية المذكورة، وإن كانت مقاييسها مختلفة. كما وتتميز العليات الخربة بأنه محل الصفوف الأفقية الأنفة الذكر تنتصب حجارة عمودية.

وقد تبين بفضل الحفريات الاختبارية (تم التنقيب في خمسة مدافن خربة) أنه تحت العليات، وعلى عمق حوالي متر في الأرض، بنيت من الصفائح الحجرية غير المسوّاة حجر دفن مستطيلة، هي بمثابة «صندوق حجري»، أما سقوفها فمن صفائح حسنة الترتيب. وظهر أن أربعة من تلك المدافن قد تعرضت للنهب، وأن أحدها عبارة عن مدفن جماعي، إذ عثر فيه على هياكل تسعة أشخاص (وجد فيه تسع جماجم وعدد كبير من العظام القصبية والحوضية، متراكمة على نحو عشوائي، ولكن بدون أية فقرات وأضلاع وسلاميات الأيدي أو الأرجل وغيرها، كما ويلفت النظر النقص الكبير في عدد الفكوك السفلى). ووسط العظام عثر على مقبضين من العظم (ربما كانا مقبضي سكينين) وبقايا سكاكين حديدية ودبوس برونزي. وفي الجزء الشرقي من الحجرة وجد، فوق العظام، إناء كروي، ضيق العنق، مصنوع باليد، ومن الفخار الأحمر.

ومن الأسف أن المواد التي تم الحصول عليها لا تتيح إعطاء أي تأريخ دقيق للمقبرة. وقد تبين أن العظام، التي أحضرناها إلى موسكو، لا تصلح للتحليل الكولاجيني. وأن التمايز الحاد لمدافن راكف عنها في باقي مناطق سوقطرى، والمشابهات بين المنشآت الصندوقية في جنوب الجزيرة العربية، من شأنها أن تدفع باتجاه تحديد تاريخ المقبرة بأنه النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، ولكن قبل تحصيل معطيات أكيدة ستبقى هذه مجرد تخمينات وظنون.

وثمة مقبرة، مؤلفة من ثلاث مجموعات منعزلة، تشغل رأساً صغيراً، تكوّن من التقاء واديي حاصن ومكلهم. وتغطي المقبرة منطقة، تبلغ حوالي 80 × 100 م. وتتألف المجموعة الأولى من تسعة مدافن، تتوضع ثلاثة منها على هيئة سلسلة، ممتدة على محور الشمال الشرقي ـ الجنوب الغربي ـ أما المدافن الستة الباقية فمتراصة. وتقع المجموعة الثانية على بعد 30م غرب الأولى، وتضم ستة مدافن، على هيئة سلسلتين متتاليتين، في كل منها ثلاثة مدافن، ممتدتين على محور الشمال ـ الجنوب. والمجموعة الثالثة عبارة عن مدفن واحد، يقع على بعد 15م جنوب شرق المجموعة الأولى.

وعلى مسافة 80 ـ 100 م شمال غرب المقبرة توجد أنقاض مبنى ما، لعله عزبة. وقد وصلنا منه أجزاء صغيرة من قواعد الحيطان الحجرية. وفوق الأنقاض شيد بيت حديث، وملاحق منزلية تابعة له، استخدمت في بنائها مواد من تلك الأنقاض. إن الاستنتاج النهائي حول طبيعة المبنى يتطلب المزيد من البحث، وإن كان من المرجح أنها تنتمي إلى عهد المقبرة نفسه.



مقبرة حاصن

وقد أجريت التنقيبات في سبعة مدافن، ثلاثة من المجموعة الأولى، وثلاثة من الثانية، ومدفن المجموعة الثالثة. وإن المنشآت الفوقية التي وصلتنا هي من طراز واحد، إذ انها عبارة عن إطار مستطيل(0,9 ـ 1,0 × 1,8 ـ 2,1 م)، وحوله إطار حجري بيضوي (2 ـ 2,3 × 2,6 ـ 2,8 م). وتتوضع الأطر على محور الشمال الشرقي ـ الجنوب الغربي (المجموعتان الأولى والثانية)، أو الغرب ـ الشرق (المجموعة الثانية).

إن الأطر المستطيلة، التي تعلو على السطح الحالي بمقدار 0,1 ـ 0,2 م، عبارة عن سلسلة من الأحجار، المغروسة فوق أطراف الحفرة التي يصل عمقها حتى المتر والتي أقيم فيها المدفن، المبني من الأحجار غير المسوّاة والمسقوف بصفائح كبيرة. وجدران المدفن حسنة الرصف. أما الفراغات سواء بين الأحجار أو بين الصفائح فتسدها الأحجار الصغيرة والحصى. والزوايا دائرية، بحيث يبدو المدفن من الداخل بيضوي الشكل. وتتوضع الصفوف الجانبية على هيئة مخروطية، بحيث يكون من الأسهل سقفه. والأبعاد الداخلية للمدفن هي: 1,7 - 1,9 × 0,7 - 0,8 × 0,6 ـ 0,7. والسقف مغطى بطبقة من التراب المرصوص والممزوج بالحصى، الذي فيه ثبّت الإطاران الحجريان المذكوران.

وهذه المدافن فردية عموماً، تستقر فيها الجثة ممتدة على الظهر، بحيث يكون الرأس باتجاه الغرب أو جنوب الغرب (وذلك تبعاً لتوجه المدفن). ولا تحتوي المدافن على أدوات للميت، أو أن هذه الأدوات جد قليلة (إناء فخاري عند الرجلين). وفي أحد المدافن (بالمجموعة الأولى) هناك، إلى جانب الهيكل العظمي

لشخص بالغ، بقايا من فك وأسنان طفل صغير. وفي المدفن نفسه وجدت عظام غنمة (؟). والمدفن الثاني (من المجموعة المذكورة) جماعي. وقد عثر فيه على عظام وجماجم ثلاثة أشخاص، بعيدة عن مواقعها الأصلية ومهشمة. ويبدو من البقايا أن إحدى الجثث كانت ممددة على الظهر، ورأسها إلى الشرق.

ويتميز مدفن المجموعة الثالثة بغنى الأدوات المدفونة مع الميت. وأبعاد الحجرة الداخلية (التي لم تصلنا منشآتها الفوقية)، الممتدة باتجاه غرب ـ شرق، هي: 4 × 1,6 × 1,4 م. وقد عثر في المدفن على جثة واحدة (؟). وكان الرأس في وسط الحائط الشمالي، في حين تجمعت العظام عند الحائط الجنوبي. وهنا وجدت ست أوانٍ فخارية، إثنتان منها عند الجمجمة، وواحدة عند العظام، وثلاث بمحاذاة الحائط عند الزاوية الشمالية الشرقية.

وقد عثر على مقبرة، شبيهة بمقبرتنا هذه من حيث منشآتها وطريقة الدفن فيها، وذلك في الشمال الشرقي من قرية شبهن. وهنا لم تصلنا أية فوقيات سليمة، ولكن يبدو من بقاياها أنها كانت، هي الأخرى، على هيئة إطار مستطيلٍ، أما الإطار الخارجي البيضوي فربما لم يكن موجوداً.

وبين مدافن هذه المقبرة جرى التنقيب في أربعة منها. وهي كلها مبنية من الأحجار، المسقوفة والشبيهة بمدافن حاصن. ولكن أرضية الحجيرات هنا مفروشة بالحصى. وهذه المدافن فردية في معظمها، الجثة فيها مستلقية على الظهر، ورأسها نحو الغرب، ولكن مدفناً منها، يحتوي على جثتين، وآخر، يحتوي على عدة جثث.

وتتميز المقبرة عن مقبرة حاصن بغنى الأدوات المدفونة وتنوعها، فبين هذه المواد تأتي الأواني الفخارية والبرونزية. وبقايا الأواني الزجاجية، وسكاكين حديدية، وأطواق من الخرز الحجرية والزجاجية، وأقراط برونزية، وأسوارة حديدية، وعثر في أحد المدافن على قرص، صنع من الصمغ المطبوخ، المستخرج من شجرة «دم الأخوين».

وفي موقعين آخرين بالقسم الشرقي من سوقطرى، بالقرب من قريتي معابض ومطهيبه، اكتشفت بقايا مساكن وعزبة كبيرة ـ «مبرهم»، ومقبرتان بجانبها.

إن أنقاض هذه العزبة القديمة هي عبارة عن مجموعة من المنشآت الخربة (لم تصلنا إلّا أسس جدرانها)، تتوضع على هيئة مربع، ساحته الداخلية 15 × 15 م. وربما كانت هذه المنشآت مبان مستقلة (7 × 7 و7 × 5)، متلاصقة، تطل أبوابها على الساحة الداخلية. وفي الجزء الجنوبي من العزبة شيد بيت حديث وزرائب للماشية، استخدمت في بنائها الأنقاض القديمة.

وبجوار العزبة، ومن الناحية الشمالية الشرقية، هناك مقبرة، أبعادها 25 × 15 م. وكانت المقبرة محاطة بسور في حينها. فعلى الأطراف الشرقي، والجنوبي، والشمالي جزئياً، تتبدى قاعدة سور، عبارة عن صف من الأحجار. وتتألف المقبرة نفسها من عدة مجموعات من المدافن، تتوضع على هيئة سلاسل (في كل منها 4 ـ 6 مدافن)، ممتدة باتجاه شمال ـ جنوب. وعلى الطرفين الشمالي والشرقي خارج السور هناك أيضاً مجموعات صغيرة، مؤلفة من 2 - 4 مدافن. وعليه فإن المجموع الإجمالي للمدافن هنا يصل إلى 35 - 40. أما فوقيات المدافن فتمتد باتجاه غرب ـ شرق (مع ميل نحو الشمال أحياناً)، ويحيط ببعضها إطار بيضوي، إلى جانب الإطار المستطيل.

وتقع قرية ومقبرة مطهيبة على طرفي وادي محظولاله. وقد وصلتنا أسس حوالي عشرة أبنية

حجرية، موزعة بصورة غير منتظمة، وهي تحتل على الطرف الشرقي بقعة، تصل أبعادها إلى حوالي 50 × 40 م، وعلى الطرف الغربي ـ 20 × 15 م. ويتبين من الأنقاض أن أحد المنشآت كان عبارة عن بيت صغير، ذي غرفة أو غرفتين، أبعادهما 8 × 6 و12 × 8، ويحيط به سور حجري، وقد بنيت الجدران من الأحجار، بدون استخدام المواد اللاصقة. ويبلغ ارتفاع بعض الأنقاض 1 ـ 1,5 م.

وثمة مقبرة صغيرة نسبياً، تحتوي على حوالي 40 مدفناً، وتتوضع في صورة مجموعات ثلاث، تقع على بعد 15- 20 متراً من القرية. وتضم أكبر هذه المجموعات 25 - 30 مدفناً، وفي الجنوب منها، وبالقرب من أنقاض المنشآت، هناك مجموعة صغيرة، تضم 3 - 4 مدافن. أما المجموعة الثالثة، التي توجد على الطرف المقابل من الوادي، جنوب شرق المجموعة الأولى. وهي تتألف من 5 - 6 مدافن، منحوتة في الصخور. وصفائح سقوف هذه المدافن ظاهرة للعيان، وفي أغلب الحالات انتزعت صفيحة أو إثنتان منها.

وتتوضع مدافن المجموعة الأولى في صورة سلسلات، تضم كل منها ما بين 3 - 4 مدافن (وتصادف أحياناً سلسلات من 8 مدافن)، ممتدة باتجاه شمال ـ جنوب. أما فوقيات المدافن فعبارة عن إطار حجري مستطيل، ارتفاعه 0,25 - 0,3 م، داخله مفروش بالحصى والتراب. وتتراوح أبعاد الأطر بين 2,2 ـ 2,7 × 1,5 ـ 1,8، وتمتد باتجاه غرب ـ شرق، مع ميل صغير نحو الشمال، وفي أحيان نادرة يصادف حول الإطار المستطيل إطار دائري، يصل قطره حتى 2,8 م. وفي بعض الحالات تقع بجوار الأطر الكبيرة أطر مستطيلة صغيرة (1,4 × 0,8)، لها الاتجاه نفسه.

وقد كشفت التحريات، التي أجريت في كلتا المقبرتين (حيث نقب عن مدفن واحد من كل منهما)، عن كونها تشابه مقبرتي حاصن وشبهن، سواء من حيث التصميم أو من حيث طريقة الدفن.

وفي عام 1985 قامت مجموعتنا بأهم اكتشافاتها، فعلى بعد 2 كم جنوب قرية السوق، على الطرف الأيمن (الشرقي) لوادي حجره الذي يصل شرقي القرية حتى البحر، تم العثور على أنقاض مدينة كبيرة.

والمدينة رباعية الشكل (130 × 100 م)، تحاذي أطرافها الجهات الأربع. ويحيط بها سور دفاعي (عرضه حوالي مترين)، مبني من الأحجار المثبتة بالطين. أما الارتفاع الذي تبقى حتى أيامنا فلا يتجاوز 0,2 ـ 0,3 م، علماً أنه قبل عدة سنوات فقط كان يبلغ في بعض أماكنه، كما يقول السكان المحليون، حوالي 0,7 ـ 1 م.

ونظراً للخراب الكبير الذي أصاب السور يصعب تحديد مكان المدخل إليه. ولكن من المرجح أن هذا المدخل كان عند الزاوية الشمالية ـ الغربية. فهنا كانت منشأة دائرية الشكل (وصلنا أساسها)، قطرها 5 م، لعلّها عبارة عن برج دفاعي. والطرفان الغربي والجنوبي من السور مستقيمان، يشكلان زاوية قائمة، أما الطرفان الشرقي والشمالي فمتعرجان.

وتتوزع المدينة، وبشكل واضح، إلى قسمين: غربي، يضم المساكن، وشرقي، هو المقبرة.

وفي الركن الجنوبي ـ الغربي من المدينة يقع مبنى كبير، مستطيل الشكل، أبعاده 30 × 15 م. ويصل ارتفاع الجدران المتبقية حتى 2 م. والمبنى مفرد، حيث تفصله عن باقي المباني «شوارع»، عرضها 10 ـ 12م. وقد بنيت جدرانه (وعرضها 1,0 ـ 1,3 م) من الأحجار شبه المسوّاة، الملصوقة بعضها ببعض. وكانت من الناحية الخارجية مطلية بطبقة من الطين،

سمكها 5 ـ 7 سم (لا تزال باقية في بعض الأماكن حتى اليوم). ويضم المبنى 7 غرف مستطيلة، تفصل الممرات بينها.

وتشغل الركن الشمالي الغربي من المدينة مجموعة كثيفة من المباني الحجرية. وهو يكاد يلاصق السور الدفاعي في الطرف الغربي منه. ويفصله عن الطرف الشمالي من السور، وعن المبنى الواقع في الركن الجنوبي الغربي، شارعان، عرضهما 7 ـ 10م، والأبعاد الإجمالية للمجموعة: 70 × 60 م. وثمة شارعان، عرضهما 5 ـ 7 م، يمتدان باتجاه الغرب ـ الشرق، وأزقة عمودية عليهما، يتراوح عرضها بين 1 ـ 1,5 م، تقسم هذه المجموعة إلى 10 ـ 11 بيتاً كبيراً (30 ـ 40 × 10 ـ 15 م). ويتألف كل من هذه البيوت من عدة غرف، أبعادها 8 × 6 و10 × 8. أما ارتفاع الجدران الذي وصل إلينا فهو 0,5 ـ 0,7 م. وقد بنيت هذه الجدران من الحجارة شبه المسوّاة، الملصوقة بالطين. وعلى محاذاة كامل الطرف الجنوبي من السور وجزء من طرفه الغربي صف متراص من المباني المستطيلة (6 × 5 و7 × 4).

أما القسم الشرقي من المدينة فتشغله مقبرة واسعة، بحيث ان مدافنها الغربية تكاد تصل حتى المساكن. والفوقيات هنا عبارة عن أطر حجرية مستطيلة (2,2 ـ 2,4 × 1,0 ـ 1,1 م)، تتوضع على المحور غرب ـ شرق، مع ميل نحو الشمال. وهي تشكل، عادة، سلسلات، تضم 3 - 4 (وحتى 8 ـ 12) مدفناً، ممتدة بالاتجاه شمال ـ جنوب. وفي بعض الأحيان تصادف إما في صورة أطر متلاصقة أحدها بالآخر، أو على هيئة إطارين، يحيط بها إطار مستطيل أو بيضوي. وفي أحيان نادرة توجد أطر منعزلة، يحيط بعضها إطار حجري إضافي، مستطيل أو بيضوي، وإن المدافن، الواقعة في القسم الشرقي من المقبرة، تتميز بعض الشيء من حيث فوقياتها. فالفوقيات هنا غير كبيرة نسبياً (1,3 ـ 1,6 × 0,4 ـ 0,7)، قريبة الشكل من البيضوي، متوضعة عادة بالاتجاه الشمال الشرقي ــ الجنوب الغربي، أو بالاتجاه شرقي الشمال الشرقي ـ غربي الجنوب الغربي، أو نادراً بالاتجاه غرب ـ شرق. وهي متوزعة بصورة غير منتظمة عموماً، فليس بينها إلّا عدد قليل، مرتب في هيئة سلسلة، تضم مدفنين أو ثلاثة.

وبينت التنقيبات؛ التي تمت في المدافن المنعزلة بالقسمين الجنوبي الغربي والشرقي من المدينة، أنه من حيث التصميم (غرفة حجرية ذات سقف مسطح) وطريقة الدفن (دفن الميت على الظهر بحيث يكون الرأس باتجاه الغرب، وبدون أدوات مرافقة) تماثل هذه المدافن مع نظيراتها في حاصن وشبهن ومبرهم ومطهيبه.

وفي القسم الأوسط من المقبرة ليس ثمة مدافن. وهنا تقوم أربع منشآت حجرية، هي عبارة عن دوائر، يتراوح قطرها بين 2 ـ 7 أمتار. ويبدو أنها بقايا آبار مردومة أو «جابية».

إن المواد، التي عثر عليها في عامي 1985 و1987، تتيح التوصل إلى استنتاج تمهيدي أولي حول تاريخها، فبين اللقى قطع من الأواني الفخارية المستوردة، يعود تاريخها إلى القرون 2 ـ 4 (وربما حتى القرن 6). وهذه عبارة عن حطام مسكة أمفورة رومانية كبيرة، وقطع من كؤوس وصحون مطلية بالّلك الأحمر. وثمة قطع فخارية، شبيهة تماماً مع لقى مدينة قنا، وخاصة من الطبقات 3 ـ 4 و5 ـ 6 (علماً أن تنقيبات ميناء قنا بحضرموت القديمة، الواقع في منطقة قرية «بئر علي» الحالية، تقوم بها البعثة السوفيتية ـ اليمنية منذ عام 1985). وعثر على الكثير من قطع الفخار المطلي والملفح، المكسو بطبقة لماعة خضراء غامقة ومن الفخار المصقول والمدهون بالطريقة الانغوبية (تويجات الأواني وجدرانها). وقد صنعت

هذه الأواني كلها على العجلة الخزفية. وجنباً إلى جنب تصادف أواني ذات ملامح محلية،سوقطرية، إنها قطع من القدر المصنوعة يدوياً، ذات قاعدة دائرية أو مسطحة، وعليها نقوش دقيقة، وهي شبيهة بالقدر التي وجدت في حاصن وشبهن. وقد صنعت هذه الأواني بدون استخدام العجلة الخزفية، وصقل سطحها بالصدف. وهي، سواء من حيث الشكل أو النقش أو طريقة الصنع، مماثلة للأواني الحالية التي يصنعها السقاطرة.

وهكذا فإن الدراسة الأولية للقى التي عثر عليها في مدينة حجره تسمح بتحديد تاريخها على أنه القرون 2 - 6 للميلاد. وربما كانت هي نفسها «آثار العصر اليوناني الكلاسيكي» «على الصفائح الجيرية الجرداء بشمال الجزيرة»، التي لم يحالف الحظ شيني في اكتشافها[12].

إن المقابر، التي تم اكتشافها ودراستها في حصن وشبهن ومبرهم ومطيبه وفي مدينة حجره، تعود إلى الحقبة ما قبل الإسلامية في تاريخ سوقطرى. وتدل على ذلك طقوس الدفن (وضعية الموتى وتوجههم، والمدافن الجماعية، وعظام الحيوانات المدفونة مع الناس) وتصميمات المدافن (غرفة حجرية ذات سقف مسطح)، والأدوات المدفونة مع الموتى. وصحيح أنه ليس بوسعنا اليوم أن نحدد دوماً وبدقة كاملة، الأطر الزمانية لوجود هذه المقبرة أو تلك، ولكن لدينا الآن دليلين مؤقتين أمينين.

وأول هذين الدليلين هو أن المدافن المدروسة في مدينة حجره، التي كانت قائمة، على الأرجح، في القرون 2 - 6 للميلاد، شبيهة، سواء من حيث طقوس الدفن أو تنظيم البناء، بالمدافن التي جرت فيها التحريات في المقابر الأخرى (في حاصن وشبهن ومطهيبه ومبرهم وغيرها). وعليه، فإنه يمكن افتراض أن ثمة قرابة زمنية بين هذه المقابر.

وثاني هذين الدليلين هو التحليل الكولاجيني للعظام المأخوذة من مدافن شبهن. فهو يحدد أعمار متفاوتة لها، تتراوح بين 790 و1110 سنوات، أي يمكن أن تعود إلى الفترة الواقعة ما بين 875 و1197 م.

وعليه فإنه يمكن إرجاع كل المقابر المعنية إلى القرون 2 - 12 م. ومن الأهمية بمكان أنه حتى القرن الثاني عشر (الحد الأعلى المفترض لزمن المقابر) لم يكن الإسلام قد تغلغل إلى أعماق المجتمع السوقطري، بحيث يترك أثره على عادات الدفن.

ثم انه إلى الناحية الشمالية الشرقية من مقبرة مبرهم القديمة توجد مقبرة إسلامية معاصرة، تضم حوالى 80 - 100 مدفن. وإن فوقياتها عبارة على أطر قريبة من المستطيلة أو بيضوية، أبعادها 1,2 – 1,6 × 0,4 – 0,6 م. وهذه الأطر مرتبة وفقاً للمحاور: الشمال الشرقي ـ الجنوب الغربي، أو شمالي الشمال الشرقي ـ جنوبي الجنوب الغربي، أو (نادراً) شمال ـ جنوب. وداخل الإطار شاهدتان أو ثلاث، ولا يندر أن تبدو هذه الشواهد شبيهة الشكل بالإنسان. ويقول السكان القريبون من المقبرة انهم لا يدفنون موتاهم فيها، فلا يدفن فيها إلّا البدو القاطنين في الجبال أو الأماكن الأخرى، والذين يمتلكون مزارع نخيل في الوديان المجاورة. وإن المقابر الإسلامية تشبه من حيث المظهر الخارجي المقابر القديمة، ولكن الفوقيات الإسلامية تختلف بغلبة الشكل البيضوي لإطارها، وبصغر مقاييسها (إلى حد كبير أحياناً) وبتوجهها (فالمقابر القديمة يغلب فيها الاتجاه غرب ـ شرق، مع ميل طفيف نحو الشمال). وباحتوائها على شواهد داخل الإطار، وغياب الإطار الخارجي البيضوي.

وتتيح دراسة الأدوات، التي تم العثور عليها بفضل التنقيبات في المقابر، ومعها الدراسة المقارنة للمدافن نفسها، طرح استنتاجات تمهيدية ذات طابع

تاريخي ـ ثقافي. فإن تشابه أنماط المدافن، التي جرى اكتشافها في مقابر مختلفة، تبعد أحياناً بعضها عن بعض مسافات كبيرة (فأمامنا عملياً المبدأ المتبع في تنظيم المقبرة نفسه، نمط تصميم المدفن نفسه، طقوس الدفن نفسها، وإن كانت تختلف فيما بينها بفوارق محلية طفيفة)، تدل على الوحدة الحضارية والاثنية لقدامى سكان سوقطرى الذين خلفوا لنا هذه المقابر، وعلى الأقل ـ وحدة أهالي مناطق الجزيرة التي اكتشفت ودرست فيها مثل هذه المقابر.

وبين الأدوات المدفونة مع الموتى هناك، إلى جانب المصنوعات المستوردة (الأطواق والفناجين الزجاجية، الإناء والأقراص البرونزية، الإناء الفخاري المطلي والملفح)، مواد مصنوعة محلياً. وهنا تأتي، في المقام الأول، الأواني الفخارية المصنوعة يدوياً وذات القاعدة الدائرية، والسكاكين الحديدية ذات المقبض والحد العريض، التي تم العثور عليها في مدافن شبهن وحاصن ومبرهم. وحتى اليوم يصنع السقاطرة أدوات مماثلة ويستعملونها في معيشتهم. وليس من المستبعد أن ثمة صلة وراثية، تربط بين حضارة السقاطرة متقدميهم ومتأخريهم.

وبهذا الصدد تسترعي الانتباه أقوال السكان المحليين، الذين شاركوا في التنقيبات، بخصوص بعض الأدوات المدفونة. فهم يحكون أن القدر الصغيرة، التي اكتشفت في مقبرة حاصن، قد اعتاد السقاطرة المعاصرون على تحضيرها عشية عيد الأضحى كذكرى للموتى من الأطفال: قدر واحد لكل طفل. وفي أول أيام العيد يملأونها بالماء فيشربونه، ثم يكسرونها ويلقون بها. وقد أخبرنا السيد محمد مبارك علي، وهو من أهالي حاصن، أنه «من المحتمل أن هذه القدر كانت تدفن مع الأطفال أو مع الآباء الذين سبق أن مات أطفالهم، أما الآن فلم يبق من تلك العادة سوى الذكرى». من عادة السقاطرة اليوم دفن أية أدوات مع الموتى، ولكن إذا كان الميت وحيداً، لا أقارب له في القبيلة المعنية حتى يرثوه، فإن القبيلة لا تأخذ أمتعته، دائماً تدفنها معه.

وقد أتت يد الدهر على مقابض السكاكين الحديدية المدفونة مع الموتى. ومن المرجح أنها صنعت من مواد عضوية لا تصمد طويلاً في التربة، أو أنها كانت تتمتع بقيمة معينة في أنظار أبناء قبيلة الميت، فكانوا ينتزعونها منها. فإن السقاطرة الحاليين يصنعون مثل تلك المقابض من قرن الماعز، الذي يعالجونه بالنار.

وبين السكاكين المدفونة كانت هناك سكين ذات حد طويل مثلث، شبهها أحد المشاركين في التنقيبات من السكان المحليين بالسكين المعاصرة التي تستخدم لشق ثمار البلح ولطرح نواها. وثمة سكين أخرى، ذات حد ورقي الشكل، ذكرت هؤلاء بالسكاكين المستخدمة اليوم في الختان بسوقطرى.

ويجدر التنويه بحكايا السكان المحليين عن الوظيفة الوقائية للأطواق والخرزات. فالأطواق الخرزية، التي تتألف من أحجار كبيرة بيضاء اللون، كانوا يتقلدونها (وإن كان هذا لا يصادف اليوم إلّا نادرة، وخاصة بين المتقدمين في السن) «لتيبيس قروح الرأس» المنتشرة بين أهالي سقطرة، أما الأطواق، ذات الألوان المختلفة، فكانت تستخدم كتميمة، تحمي من ذباب «دي عسر»، الذي يؤدي عضه ـ كما يعتقد السقاطرة ـ إلى المرض، حتى وإلى الموت. ويروي المحليون أن سكان الجبال كانوا يحيطون سواعد أطفالهم بأسورة خرزية، ويطوقون خواصرهم بخيط علقت عليه خرزة كبيرة. وكانت الخرزة توضع من ناحية الظهر، لكي تشفي حاملها من وجع القطن.

أما دفن عظام الماعز أو الغنم مع الميت فإنه يبدو للسقاطرة المعاصرين شيئاً غريباً جداً. ويمكن القول، على الأقل، انه في الوقت الحاضر أو في الماضي المنظور لا تعرف مثل هذه الظاهرة المحيرة.

الحواشي :

(1) P.L. Shinnie. Socotra - «Antiquity», 1960, XXXIV, p.108

(2) المرجع المذكور أعلاه، ص 107 .

(3) المرجع المذكور أعلاه، ص 106 - 109 .

(4) B. Doe An Archaeological Reconnaissance in 1967. Miami, Florida, 1970. pp. 41, 151.

(5) المرجع المذكور أعلاه، ص 151 .

(6) المرجع المذكور أعلاه، ص 152 .

(7) المرجع المذكور أعلاه، ص 152 .

(8) المرجع المذكور أعلاه، ص 5 - 6 .

(9) المرجع المذكور أعلاه، ص6 .

(10) E. Anati. The Rock Engravings on Danthami Wells in Central Arabia. - «Bolletine del Centro Commune di studi Preistoriei», V. V, 1970, p. 99 - 158.

(11) داو، المرجع المذكور، ص151 - 152 .

(12) شيني، المرجع المذكور، ص 108 .

تُرجم هذا البحث الى العربية
وقد وضعه الباحثان السوفياتيان خصيصاً
لمجلة الفكر العربي .